التراث العربي والإسلامي في مختلف مكتبات العالم

كل أمة تعتز وتفتخر بماضيها، وكل شعب من الشعوب يتعلق بأعلام وطنه من الأدباء والشعراء والفلاسفة والفنانين، وكل مواطن فرد له نموذج الذي يحتذيه ومثاله الذي يحاكيه، وهذه حقيقة لا تقبل الجدل والنقاش حولها.

ففي أدبنا العربي هناك مثلا الجاحظ وابن قتيبة وابن سلام والجرجاني وابن رشيق... ومن خلال مختلف آثارهم وكتبهم ومخطوطاتهم، يمثلون المعالم الثابتة والشامخة في حضارتنا الغربية والإسلامية؛ هذه الأمة التي تفتخر بأعلامها وبتراثها أمام الأمم الأخرى.

ففي إنجلترا مثلا هناك "شكسبير" و "برناردشو"، وفي فرنسا هناك "بلزال" و "وزولا" وفي ألمانيا هناك "جوته" وفي الهند "طاغور"، وفي روسيا "تولستوي" و "تشيخوف" و "كراتشكوفسكي"... الخ.

يقول ابن قتيبة في "الشعر والشعراء": "كل قديم كان في يوم ما جديدا، وكل جديد سيكون في يوم ما قديما". وهذا معناه أنه ليس كل القديم ضعيفا ورديئا لأنه قديم، كما أن الجديد كله ليس جيدا لمجرد أنه جديد ففي القديم قديم جيد، وفي الجديد جديد ضعيف لا ضر فيه، لأن إطلاق الأحكام بعمومية وقطعية على هكذا موضوع، أمر تنكره طبيعة العلم، ومسألة ترفضها النظرة الموضوعية، والأحكام المنصفة العادلة.

ولكي نحكم على كل القديم -التراث- بأنه لم يعد صالحا، فإنه لا بد من دراسته كله، وفي مختلف عصوره، وبشتى ألوانه وفروعه وفنونه وموضوعاته، وكذلك الحال بالنسبة للجديد، والمقصود بالقديم هنا -كتب التراث أي المخطوطات.

ونحن في هذا الصدد -الموضوع- لسنا بغرض مناقشة الصراع بين القديم والجديد، ولكن حسبنا أن نشير إلى جانبين من هذا التراث:

1- الجانب الأول: سلبي ضعيف، يجب تركه وإسقاطه من حياتنا العلمية لأنه يرمز إلى التخلف ويسيرنها إلى الوراء (فيه سلبية وفردية وأنانية وتعصب).

2- الثاني منه: إيجابي جيد، يجب علينا إحيائه وتحقيقه ونشره بعد تقويمه وتقييمه وتصنيفه وتجديده، لأنه يفتح أمامنا آفاق التقدم وينقذنا من التخلف ويساعدنا على بناء عصر جديد وغد أفضل، وبناء على ما تقدم فعلى دارس كتب التراث، خاصة الأدبية منه، أن يكون قارئاً واعياً وكياً، لأننا قد نجد كتاباً من كتب التراث موضوعاً جيداً في جانب، ولكنه سطحي وسلبي في

جانب آخر، لأن أعلامنا القدماء كانوا موسوعيين، أي يأخذون العلم والمعرفة على أنها كل واحد لا يتجزأ وينظرون إليها نظرة موسوعية شاملة عامة، فالعالم هو الذي يلم بكل شيء، والأديب عند ابن قتيبة [من أراد أن يكون أديبا فليوسع في العلوم] ومعناه أن المثقف هو الذي يأخذ من كل علم بطرف أي معرفة شيء في اللغة، والنحو، والفقه، والشعر، والأنساب، والتاريخ والجغرافيا... الخ.

وعلى هذا فليس من المعقول أن تأتي كتبهم وتصانيفهم كاملة في كل هذه المواضيع من المعرفة؛ وتلك الألوان من العلوم.

- ومن ثم فإن عملية إحياء التراث (تحقيق المخطوطات ونشرها) يتطلب لمجموعة من العلماء المتخصصين (من طلبة الجامعات والأساتذة الباحثين) في مختلف فروع العلم والمعرفة، لتبحث عن الأماكن ******* التي توجد بها هذه المخطوطات العربية والإسلامية بهدف إنقاذها من الضياع أولا ولمعرفة أصلها وحقيقتها وصحتها ثانيا، ولحمايتها من جور الزمان والإنسان ثالثا.

- نحن في حاجة ماسة إلى جهود جماعية متعاونة من الطلبة والأساتذة الباحثين المتخصصين في اللغة والشعر والفقه والاجتماع وعلم النفس... لأن تحقيق كتاب من كتب التراث يحتاج إلى أكثر من متخصص في أكثر من علم ومجال من مجالات النشاط الفكري والعقلي والعملية، وأنه يؤخذ التراث مأخذا عمليا لا نظريا، وعلى أساس منهجي علمي موضوعي.

- تحقيق كتب التراث العربية والإسلامية، تحتاج من الباحثين والدارسين العرب وغير العرب (المستشرقون خاصة) إلى نوع من الوعي العلمي المعمق بها، الذي لا يقف عند حد التسليم المطلق، وإنما ينبغي أن يكون مستندا إلى الممارسة والبحث والتدقيق والتحقيق، وتأكيد ذلك بمراجعة ما خلفه الآباء والأجداد، والعمل الجاد على إحيائه ونشره وتوعية الناس به.

التراث العربي الإسلامي والحضارة الغربية

إن الشيء الثابت في المؤثرات الإيجابية الفاعلة لتراثنا العربي والإسلامي في الحضارة الأوروبية، هو الكتاب أي المكتبة العربية وما تزخر به من مصنفات متنوعة ومؤلفات غزيرة لعلماء الإسلام لقرون طويلة.

- وأيضا أن الشيء المعروف والثابت أن الترجمة من العربية إلى اللاتينية سهلت نقل العلوم العربية فيما بعد إلى أوروبا.

فقد اهتم علماء اللاتين بترجمة عديد من الكتب العربية في الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والنبات والحيوان... وبذلك سهلت لهم معرفة كبار علماء الإسلام، أمثال جابر بن

حيان والرازي في الكيمياء والخوارزمي وابن الهيثم في الرياضيات والبصريات... إلى جانب الفلاسفة والأطباء.

- وترجموا "اللكندي" بعض رسائله الفلسفية وكتبه العلمية، كما ترجموا "الفارابي" كتاب "إحصاء العلوم" وابن سينا وموسوعته الفلسفية وأجزاء من كتابه "الشفاء" الذي نسخت منه عشرات المخطوطات وانتشرت في مختلف أنحاء أوروبا.

- وكتاب: مقاصد الفلاسفة للغزالي من الكتب التي ترجمت مبكرا.

وأیضا كتابه: تنافت الفلاسفة.

- كما عرفت أوروبا عن طريق اللاتين "ابن ماجة" أول فلاسفة الأندلس وكان الفيلسوف "ابن رشد" له الدور البارز في الثقافة الأوروبية خاصة شروحه على أرسطو، وترجمة كتابه: تهافت التهافت، والفرد 14 القرن الرابع عشر الميلادي.

وإذا كان "أرسطو" أول من وضع لعلم المنطق قواعده وأصوله، فإن جابر بن حيان الذي عاش في القرنين (2هـ - 3هـ) (8-9م) قد استمد أصوله الفكرية من تراث اليونان، خاصة فيما يسمى عندهم فكرة الطبائع الأربع الأولية التي منها نشأت الكائنات جميعها وهي: الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة، ولكنه لم يقف عند هذا الحد من التأثير، بل أثر فيمن جاءوا بعده من الكيميائيين، فقد كان علم الكيمياء هو أخص خصائصه وأن المؤلفات الأوروبية تصنفه بأنه *** العرب الأول؛ وذلك لتقدمه في العلوم الطبيعية من خلال مؤلفاته العديدة.

- ونظرا لمكانة هذا العالم الإسلامي أنه المستشرق (بول كراوس) هو الذي جمع مخطوطاته من مختلف مكتبات أوروبا، ونشرها في كتاب (مختار رسائل جابر بن حيان).

- وعرفت أوروبا فيلسوف الضارة العربية (يعقوب بن إسحاق الكندي) (185هـ - 225هـ) الذي بلغت مؤلفاته 241 كتابا، ضاع أغلبها ولم يبق منها سوى 40 كتابا، في الطب والعلاج، والفلسفة والمنطق وفي الموسيقى.

- وهناك نوع آخر من كتب التراث العربي والإسلامي، اهتمت بالتاريخ للبلدان والمدن، مثل: "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي، و "تاريخ مكة" لمأ رزقي، و "تاريخ دمشق" لابن عساكر، و "تاريخ حلب" لابن النديم وكانوا ينتبعون تاريخ البلد جغرافيا ومن حيث الرجال الذين ولدوا به أو نشأوا به أو أخذوا عليه.

- وقد ألف العرب القدامى في "طبقات الأدباء" كياقوت الرومي، وكتاب "نزهة الألباء في طبقات الأدباء" لابن الأنباري، وكتاب "طبقات الأطباء والحكماء" لابن جاكل، و "عيوب الأنبياء في طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة؛ و "بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة"

وطبقات الشعراء "لابن المعتز، وطبقات الشعراء للجزري، و "طبقات الشافعية الكبرى
"لتاج الدين السبكي...الخ.

- وكان العلماء في تاريخهم يرجعون إلى الأصول للثبوت من المعلومة مثل "المسعودي" في
مروج الذهب، و "البغدادي" و "ابن خلدون" و "المرزباني" في معجم الشعراء، و
"الخطيب البغدادي" في تقييد العلم، و "ابن خلكان" في وفيات الأعيان، والكتبي في فوات
الوفيات.

- ويجب ألا ننسى كاتباً عربياً أحرق كتبه عام 400هـ ببغداد، والتي بلغت ثمانية عشر 18
كتاباً، مثل "الإمتاع والمؤانسة" و "الصدقاة والصديق" و "العوامل والشوامل"... إلى غير
ذلك من الكتب التي افتقدتها المكتبة العربية، وهذا بسبب كاف وقوي لإعادة البحث والتنقيب
عن المخطوطات العربية في مختلف مكتبات العالم من أجل تحقيقها ونشرها، لتكتمل لنا
صورة *** العربي من جميع جوانبه وفي مختلف عصوره، وتبين جيده من ضعيفه، وغثه
من سمينه، لتكون في الأخير نظرة واضحة وشاملة لحضارتنا العربية والإسلامية، نظرة
موضوعية فاحصة، توصلنا إلى رؤية علمية واعية ونافعة.

- وهناك طائفة أخرى من كتب التراث تنسب لأهل العلم والأدب في القرن الرابع والخامس
والسادس، تناولت بالكتابة كل علم وفن.

مثل: الجوهري (ت 398هـ) ومعجمه اللغوي/ الصحاح، والثعالبي (ت 429هـ) وكتابه: يتيمة
الدهر، والإمام الغزالي (ت 505هـ) صاحب كتاب: إحياء علوم الدين، الذي جمع فيه بين
الشريعة والتصوف والأخلاق والزمخشري (ت 538هـ) وكتابه: أساس البلاغة، وعماد الدين
الأصبهاني (ت 597هـ) وأشهر كتبه: *** القصر، والنويري (ت 677هـ) وكتابه نهاية الأرب،
يضاف إلى هذا كله؛ تلك الموسوعة اللغوية: لسان العرب لابن منظور (633- 711هـ) والذي
يحتوي على ثمانين ألف 80.000 مادة، وابن منظور في لسانه يأخذ عن أهم كتب ومصادر
التراث العرج (كتاب تهذيب اللغة للأزهري، الصحيح للجوهري، *** ابن *** الحكم
والمخصص لابن سيده، والنهاية لابن الأثير).

- وتقسم الكتب التراثية قسمين كبيرين: أولى مراجع عامة، وثانيهما مراجع أدبية خاصة، أما
القسم الأول يضم (الفهارس) مثل الفهرست لابن النديم وكشف الظنون لحاجي خليفة؛ واكتفاء
القنوع بما هو مطبوع للمستشرق (كفان ***).

- وهناك ثلاثة أنواع من الفهارس:

1- الكتب التي تصنف لنا الثقافة المعروفة في زمن ما، تحت عناوين هي أسماء العلوم، ثم تورد كل عنوان أو علم، أهم الكتب المصنفة فيه، مع التعريف بقيمة الكتاب، وبطريقة تأليفه وتبويبه ثم التعريف بمؤلفه (حياته وعصره...الخ) مثل مقدمة ابن خلدون.

2- الكتب التي تتبع ترتيباً أبجدياً، بأسماء الكتب مثل (كشف الظنون) أو بأسماء مؤلفيها.

3- البيبلوغرافي، وهو نوع من التأليف يجمع بين تاريخ الأدب، والإرشاد إلى الكتب، ومعناه جمع الكتب التي يرجع إليها الباحث في موضوع معين؛ مع إعطاء نبذة عن تاريخ هذا العلم، وعن موضوعاته، مثل: (اكتفاء القنوع كما هو مطبوع) و (تاريخ آداب اللغة العربية) لجورجي زيدان.

وفي تراثنا القديم لا يوجد هناك تفريق بين الكتب المطبوعة والمخطوطة.

- وكتاب (الفهرسة) أو (الفهرست) لابن النديم، هو أقدم الفهارس وأجلها قيمة (القرن 4 هـ) وصاحبه ابن النديم كان يمتحن مهنة الوراقة (نسبة إلى الورق من نسخ وطبع وتجليد...الخ) وكانت له دكاكين ونساخ ينسخون له هذه الكتب المخطوطة.

- وكتاب الفهرست ليس مرتباً ترتيباً أبجدياً، وإنما هو يقسم صب الموضوعات، فإذا أردت أن تبحث عن الجاحظ مثلاً أو الكتب التي ألفها، لا بد أولاً أن تبحث عن مكانة الجاحظ (عصره، معلومات شاملة عنه، وأنواع الفنون التي كتب فيها)

- قسم ابن النديم كتابه إلى أبواب (مقالات) تشمل جميع معارف عصره، من علوم لغوية، أدبية، عقلية، طبيعية، وأخبار شعبية وقصص.

فهو يبدأ مقاله بمقدمة عن نشأة العلم الذي يتحدث عنه ثم يذكر *** من ألقوا فيه واحداً بعد واحد، وكلما ذكر واحداً ترجم له ترجمة مختصرة ثم يشير إلى أهم مؤلفاته، وإذا كان للكتاب أكثر من نسخة (مخطوطة) أشار إلى ذلك وعين الأجود منها.

- طبع الكتاب في ألمانيا 1872م طبعة فلوجل flugel

وألحق به كشف بأسماء العلماء (الأعلام) العربية والفارسية واليونانية مكتوبة بالحروف الأجنبية.

* كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة (ق 11هـ)

وهو نموذج للفهرسة الأبجدية الذي يجمع بين عناوين الكتب وأسماء الفنون،

- عندما يتحدث عن فن من الفنون، يشير إلى نشأة هذا العلم ثم يشير إلى أهم الكتب التي ألفت فيه، قضى حاجي خليفة أكثر من 20 سنة في جمع مواد كتابه، هذا الكتاب الذي يشمل أكثر من 1500 من أسماء الكتب، وذكر فيه أكثر من 9500 كاتب ومؤلف.

- طبع الكتاب في مصر والقسطنطينية في جزأين، 1855م، ثم طبع مرة ثانية في 07 أجزاء، وآخر جزء منها يضم الفهارس.

* أما المستشرق "إدوارد قاندين" وكتابه (اكتفاء القنوع بما هو مطبوع) وهو كتاب في تاريخ الأدب؛ تحدث فيه عن الشعر والنثر والجغرافيا والتاريخ والكتب الدينية والفلسفة.

- وعند حديثه عن أي موضوع يعطي فكرة عامة عنه، ويترجم لأهم المؤلفين فيه، ويورد أسماء كتبهم، والكتاب لم يكتف بما هو مطبوع، بل أحيانا كان يتعرض بالحديث عن المخطوطات العربية وأماكن وجودها في مختلف مكتبات العالم.

-طبع الكتاب في جزء واحد في القاهرة 1869م.

- يتعرض الكتاب في مقدمته لأهم الأماكن التي تحتفظ بالكتب العربية، مثل مدينة (برلين، الاسكوريال بإسبانيا؛ كونيها جن *** لندن، أكسفورد، روما، فيينا، بغداد، القسطنطينية، دمشق، تونس، المغرب، ومصر).

- وأخيرا وليس آخرا، هذه هي الخطوط العامة لسير حركة التأليف للتراث العربي والإسلامي، وهناك عشرات الآلاف من الكتب والمخطوطات في مختلف فروع المعرفة والعلم والثقافة، لا سبيل إلى حصرها أو مجرد الإشارة إليها، فضلا عن عشرات الآلاف مما تجمع للغرب من تراثنا.

- ويكفي ان نرجع إلى كتاب: "تاريخ الأدب العربي" للمستشرق الألماني "بروكلمان" لتطلع على ما فيه من مخطوطات الأدب العربي الموجودة في دور الكتب الأوروبية.

- وأيضا فهارس المخطوطات العربية في مكتبة برلين وحدها، 1930م حوالي 10 مجلدات من الحجم الكبير.

- أيضا فهرسة المخطوطات العربية في خزائن المكتبات الفرنسية (20 مجلدا)

- وأيضا في روسيا، يوجد حوالي 12000 مخطوط عام 1963م.

- وفي خزائن ليننجراد 7000 مخطوط عربي.

- وفي معهد الاستشراق في (طشقن) عاصمة أوزبكستان، يوجد أكثر من ثمانين ألف 80.000 مخطوط باللغة العربية واللغات الشرقية.

- وهناك مخطوطات كثيرة في خزائن الفاتيكان؛ وباريس، والإسكوريال في مدريد، *** في هولندا، والمتحف البريطاني في لندن وبرلين وفيينا، وموسكو، ولنجراد، وفضلا عما هو موجود في مئات المكتبات الخاصة بعلماء الاستشراق وهواة جمع المخطوطات.

- القسم الثاني من المراجع العامة، وهي قسمان: معاجم عامة مثل:

"القاموس المحيط" ****، و "لسان العرب: لابن منظور، و "أساس البلاغة" للزمخشري، و "المخصص" لابن ***.

وهناك المعاجم الخاصة، وفي مقدمته: "معجم البلدان" لياقوت الحموي، و "معجم ما استعجن" للبكري، و "كشاف اصطلاحات الفنون" *** (الهند).

- وتمثل كتب التراجم العامة القسم الثالث لمراجع العامة، مثل: "وفيات الأعياء*" لابن **خلكان**، و "الأعلام" للزركلي.

- تبقى بعد ذلك "المراجع الخاصة" وهي:

- كتب الأدب العامة، كالبیان والتبيين للجاحظ/ و "الكامل" للمبرد، وأدب الكاتب لابن قتيبة، و "الأمالى" لابن علي القالي، والعقد الفريد لابن عبد ربه.

- الكتب الخاصة بثقافة الدواوين، مثل: "صبح الأعشى" للقلقشندي.

- كتب المختارات، كالمفضليات والأصمعيات وجمهرة "أشعار العرب للقرشي؛ وحماسة أبي تمام وحماسة البحتري والحماسة الشجرية.

- كتب التراجم، مثل: "طبقات الشعراء" لابن سلام، و "الشعر والشعراء" لابن قتيبة و "معجم الأدباء" لياقوت الحموي، و "الأغاني" للأصبهاني.

المحاضرة رقم 02

المخطوطات والاستشراق

إن الاستشراق في حقيقة الأمر كان ولا يزال جزءاً لا يتجزأ من قضية الصراع بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، بل هو الخلفية الفكرية لهذا الصراع. ولا يزال الأوروبيون إلى اليوم **يستقون** معلوماتهم عن الإسلام من كتابات المتخصصين في هذا المجال، وهؤلاء هم – بطبيعة الحال- من طبقة المستشرقين فالواقع الذي نعيشه اليوم، يحتم علينا أن نبتعد عن التعميمات الخاطئة في نظرتنا للمستشرقين، على أنهم أعداء للإسلام والمسلمين، بل علينا أن يكون لنا موقف نقدي يقوم على أسس علمية، لأن الاستشراق يشمل على عناصر إيجابية وأخرى سلبية، ومن ثم علينا أن نتعرف للمستشرقين بمآلهم من إيجابيات، ومن جانب آخر علينا أن ننبه إلى ما وقعوا فيه من أخطاء.

- فالجوانب الإيجابية -في تصورنا- تتمثل في العناية بالمخطوطات العربية في المكتبات الغربية، وفهرستها، وتحقيق العديد من أمهات الكتب العربية في شتى مجالات الفكر الإسلامي، والقيام بالعديد من الدراسات اللغوية المفيدة والقيمة، والموسوعات والمعاجم النافعة، وغيرها من دراسات من مختلف مناحي العلوم والفنون الإسلامية.

- أما الجوانب السلبية في دراسات المستشرقين، فإنها تتمثل بصفة أساسية في العديد من الدراسات والبحوث حول القرآن الكريم والسنة المحمدية، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

- والحقيقة التي يجب أن نقال هنا: إن بعض المستشرقين المعاصرين يتصفون بالموضوعية في كتاباتهم وهم على استعداد للحوار العلمي البناء مع علماء المسلمين.

- وفي محاضرتنا هذه (دور المستشرقين في تحقيق ونشر تراثنا الأدبي خاصة) يجب أن نكون منصفين بعيدين عن المواقف الانفعالية، التي تخرج بنا عن الموضوعية العلمية المطلوبة في مثل هذه المواضيع.

- كان علماء الغرب –ومنذ منتصف القرن الثاني عشر ميلادي- يعملون جاهدين على ترجمة الكتب العربية في الفلسفة والعلوم، بعد الاقتناع بأن العرب والمسلمين يملكون مفاتيح بناء الحضارة الإنسانية، لما لهم من تراث موغل في القدم.

- وهذه الحركة التي قامت في أوروبا لترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية تشبه تلك الحركة التي قامت في العالم الإسلامي في عهد المأمون (الدول العباسية) ومن سبقه لترجمة العلوم اليونانية وغيرهما إلى العربية.

- وفي منتصف القرن السادس عشر ميلادي ثم إنشاء أول كرسي لغة عربية في "الكوليج دي فرانس" collège de France في باريس، وشغل هذا المنصب "جيوم بوستل" Guillaume postel الذي يعد أول المستشرقين الحقيقيين، الذي جمع مجموعة هامة من المخطوطات العربية.

ويقول عن قيمة معرفة اللغة العربية:

"إنها تفيد بوصفها لغة عالمية في التعامل مع المغاربة والمصريين والسوريين والفرس والأتراك و*** والهنود، وتحتوي على أدب ثري، ومن يجيدها يستطيع أن يطعن كل أعداء العقيدة النصرانية بسيف الكتاب المقدس... وعن طريق معرفة لغة واحدة (العربية) يستطيع المرء أن يتعامل مع العالم كله"

- ومع نهاية القرن السادس عشر الميلادي، بات من السهل طباعة الكتب العربية في أوروبا عن طريق المطابع، من أهمها: مؤلفات ابن سينا في الطب والفلسفة

- وفي بداية القرن السابع عشر الميلادي بدأ المستشرقون في جمع المخطوطات الإسلامية، وأنشئت كراسي للغة العربية وأماكن مختلفة من أوروبا.

*** جمع المخطوطات العربية، وتحقيقها ونشرها:**

انقسم المستشرقون منذ وقت طويل لجمع المخطوطات العربية من كل مكان في بلاد المشرق الإسلامي، وكان هذا العمل نابعا من وعي تام بقيمة هذه المخطوطات التي تحمل تراثا غنيا في شتى مجالات العلوم؛ وقد ساعد هذا الكم الهائل من المخطوطات التي جاءت من الشرق على تسهيل*** الدراسات العربية في أوروبا وتنشيطها، ومنذ حملة "نابليون" على مصر

عام 1798م، تزايد نفوذ أوروبا في الشرق وساعد ذلك على جلب الكثير من المخطوطات؛ مع التنبيه إلى أن هذا الجمع قد تم بطرق مشروعة وغير مشروعة.

- وقد لقيت هذه المخطوطات في أوروبا اهتماما كبيرا، وتم العمل على حفظها وصيانتها من التلف والاندثار، فقد اعتنى بها علماء الاستشراق عناية فائقة وفهرستها فهرسة علمية، مفيدة ودقيقة، إذ وصفوا المخطوط وصفا دقيقا، مع الإشارة إلى ما يتضمنه من موضوعات، وذكر اسم المؤلف وتاريخ ميلاده ووفاته، وتاريخ تأليف الكتاب المخطوط أو نسخة... الخ

وبذلك وفر هؤلاء العلماء الغربيين للباحثين الراغبين في الاطلاع على هذه المخطوطات العربية والإسلامية فرصة علمية بعيدا عن الإجراءات المعقدة والأساليب ****** المعروفة في الوطن العربي.

- وقد قام "ألوارد" Ahlwardt بوضع "فهرس" المخطوطات العربية في مكتبة "برلين" بألمانيا في عشرة مجلدات، يشتمل على حوالي عشرة آلاف (1000) مخطوط، وهذا مقال أو نموذج واحد فقط لما قام به المستشرقون في الجامعات والمكتبات الأوروبية، وهو عمل أو فهرسة دقيقة وشاملة.

- وتقدر المخطوطات العربية والإسلامية في مكتبات أوروبا بعشرات الآلاف، ****** نقل لمئات الآلاف، بالإضافة إلى دراسات هؤلاء المستشرقين عن هذه المخطوطات في مجالات مختلفة.

- ولم يقتصر عمل المستشرقين على جمع المخطوطات وفهرستها فقط، بل تجاوز ذلك إلى تحقيقها ونشرها نشرًا علميًا دقيقًا، أي محاولة تخليصها من مثير من الأخطاء (التصحيف والتحريف) العالقة بها.

فقد قام علماء الاستشراق بتحقيق الكثير من كتب التراث الإسلامي، معتمدين في ذلك على منهج علمي دقيق المعروف عند علماء التحقيق، وهو:

(1) جمع النسخ المختلفة للمخطوط الواحد.

(2) تسجيل الفروق والقراءات المختلفة الموجودة في نسخ المخطوط (في الهامش)

(3) إثبات وترجيح القراءة الصحيحة أو لا تبدو للمحقق أنها صحيحة.

(4) وضع الفهارس المختلفة لكل مخطوط (في آخر المخطوط).

(5) هناك فهارس للأعلام والموضوعات... الخ

(6) إمكانية وضع ملاحق مختلفة لكل مخطوط.

(7) إمكانية إضافة تعليقات وشروحات يراها المحقق ضرورية (في الهامش أو في الحاشية)

- وهكذا استطاع علماء الاستشراق أن ينشروا عددا كبيرا جدا من المخطوطات العربية كانت سندا قويا للباحثين الصادقين في الكشف عن أسرار وخبايا هذه المخطوطات في مختلف أنحاء العالم، ومن أهم هذه الكتب والمخطوطات المحققة والمطبوعة على أيدي المستشرقين.

يسره ابن هشام، الإتيان للسيوطي، المغازي للواقدي، الكشف للزمخشري، تاريخ الطبري، كتاب سيبويه، الاشتقاق لابن دريد، معجم الأدباء لياقوت، *** للسراج، البديع لابن المعتز، حي بن يقظان لابن طفيل، الكامل للمبرد، الجهرة لابن دريد، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، الفهرست لابن النديم، كشف الظنون لحاج خليفة، التعريفات للجرجاني، صحيح البخاري، وفيات الأعيان لابن خلكان، الأغاني للأصفهاني، عيون الأخبار لابن قتيبة... الخ.

- وقام المستشرقون أيضا بترجمة مئات الكتب العربية والإسلامية إلى اللغات الأوروبية، مثل دواوين الشعراء والمعلقات وكتاب مروج الذهب للمسعودي وكتاب الإحياء والمفقد للغزالي... الخ هذا فضلا عن مئات الكتب التي ترجمت في القرون الوسطى والفلسفة والطب والفلك وغير ذلك من العلوم.

- وقام المستشرقون كذلك بتأليف مئات الكتب في الدراسات العربية والإسلامية خاصة مع بداية القرن التاسع عشر، فقد ألفوا في التاريخ الإسلامي وفي علم الكلام وفي الشريعة وفي الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامي وفي تاريخ أدب اللغة العربية وفي النحو العربي وفقه اللغة... الخ.

- وحسبنا هنا أن نذكر أهم المؤلفات الاستشراقية المتعلقة بالأدب العربي؛ مثل:

1- تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان (ت 1956م)

- يعد هذا الكتاب موسوعة شاملة للمؤلفات العربية المخطوط منها والمطبوع، حاول فيه "بروكلمان" وهو مستشرق ألماني، حصر وإحصاء ما تفرق من تراث الفكر العربي في مكتبات العالم وخزائن الكتب، والذي يعد بحق تراث خالد، يستحق الفخر والاعتزاز، ويتطلب منا البعث والإحياء والتحقيق والنشر، لبناء حضارة إنسانية في الشرق والغرب.

- وقد كان المستشرق الألماني يدرك أن عمله في حاجة مستمرة للإكمال، بناء على ما يكتشف من مخطوطات، ولذلك استمر عمله هذا أكثر من نصف قرن.

- وجاء الباحث التركي المسلم "فؤاد سيزكين" في كتابه "تاريخ التراث العربي" ليكمل عمل بروكلمان، بعد أن اكتشف آلاف المخطوطات العربية والإسلامية.

2- دائرة المعارف الإسلامية (1913م- 1938م)

وهي من تأليف مجموعة من علماء الاستشراق، صدرت باللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وقد ترجمت فيما بعد إلى العربية (1933م) من طرف لجنة دائرة المعارف الإسلامية.

- وفي 1948م في باريس قرر مجموعة من علماء الاستشراق إصدار دائرة معارف إسلامية جديدة، تواكب ما صدر من بحوث جديدة وما نشر واكتشف من مخطوطات.

وقد صدر منه حتى الآن ستة (06) مجلدات من الحجم الكبير، ولعل الفرق الواضح بين الطبعة الجديدة والقديمة، هو أن آراء المستشرقين في الغالب، في الطبعة الجديدة يتسم بالموضوعية العلمية وبالاعتدال تجاه القضايا الإسلامية الخلافية؛ وكذلك بمشاركة كثير من العلماء المسلمين في تحريرها.

3- المعاجم

دور المستشرقين في تأليف المعاجم والقواميس اللغوية، بارز ومعروف، وحسبنا أن نشير هنا إلى:

- 1) أول قاموس لاتيني عربي في القرن الثاني عشر الميلادي.
- 2) المعجم العربي اللاتيني الذي ألفه جورج فرايتاج (1861م)
- 3) هناك قواميس صغيرة وكبيرة (الجمع بين العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية)
- 4) معجم اللغة العربية القديمة المرتب حسب المصادر (تأليف أوجست فيشر) 1949م.
- 5) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف (1936م) وهو في سبعة (07) مجلدات.

أهداف المستشرقين:

إن الدافع العلمي كان وراء كل الجهود الاستشراقية يقول المستشرق الألماني "رودي بارت" "إننا في دراستنا لا نسعى إلى نوايا جانبية غير صافية، بل نسعى إلى البحث عن الحقيق الخالصة".

- ولكن الأمر ليس بهذه البساطة، أن يتجه الأوروبيون لدراسة *** فلا بد أن تكون هناك أهداف أخرى، ونعتقد أن الهدف الديني كان وراء نشأة الاستشراق ودعم الدراسات الإسلامية والعربية في أوروبا

- والهدف الديني للاستشراق له ثلاثة اتجاهات:

- (1) محاربة الإسلام والبحث عن نقاط ضعفه، والانتقاص من قيمه.
 - (2) حماية المسلمين من خطر الإسلام، وتحذيرهم من الاستسلام لهذا الدين.
 - (3) التبشير وتنصير المسلمين.
- إلى جانب أهداف أخرى مثل: أهداف علمية، أهداف تجارية وأهداف سياسية
- ولكن ذلك ليس حكماً عاماً على جميع المستشرقين فهناك *** قد حاول الالتزام *** والموضوعية، وهناك من أنصف من جانب وتعامل من جانب آخر... وهناك... الخ.

المحاضرة رقم 03

تحقيق التراث الأدبي

كلمة "التراث" لغة: مأخوذة من الفعل "ورث" نقول ورثت الشيء أرثته وراثته وإرثاً. والتراث وبقية الأسماء المشتقة منها: الورث، والإرث والوراث والإراث والتراث، بمعنى واحد.

وقيل: الورث والميراث في المال، والإرث في الحساب.

قال تعالى: (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) الفجر 21 / 22.

- والتراث الذي نقصده هنا: الذي نقصده هنا: ما خلفه القدماء من آلاف الكتب والرسائل العلمية ما يزال الكثير منها مخطوطاً في مختلف مكتبات العالم، وما تحتوي هذه الكتب من نظريات وأفكار علمية...

- والتراث هو كل ما خلفه المؤلف بعد حياته من نتاج يعد تراثاً فكرياً مثل: شعر شوقي وحافظ إبراهيم وحديث عيسى بن هشام وآثار العقاد والمازني وفكر ابن باديس... فكله تراث له حرمة تاريخية وقدره الأثري.

يقول عبد السلام هارون "وكلمة التراث جاءت في المعاجم تحت مادة "ورث" وهو فعل ثلاثي" وتدور معانيها حول حصول المتأخر (الخلف) على نصيب مادي أو معنوي ممن سبقه (السلف): سواء كان السلف والد أو قريب أو موص أو نحو ذلك".

- وكلمة "التراث" وردت أول مرة في القرآن الكريم، في قوله تعالى (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ) النمل 16.

- ويفسر سيد قطب هذه الآية بقوله: والمقصود بهذه الآية هي وراثته العلم، وداوج أوتي الملك مع النبوة والعلم، ولكن الملك لا يذكر في صدد الحديث التي يذكره القرآن، ولم يقصد به المال أيضا... والعلم هو القيمة العليا التي تستأهل الذكر.

- والتراث بمعناه الواسع، هو ما خلفه السلف للخلف من ماديات ومعنويات مهما كان نوعها، وبمعنى أدق، هو كل ما ورثته الأمة وتركته من إنتاج فكري وحضاري، (إنتاج علمي، إنتاج أدبي، صور حضارية ترسم واقع الأمة ومستقبلها) وهذا يعود إلى بداية المعرفة الإنسانية للكتابة بأشكالها، وأساليب التعبير عنها، وبمختلف أنواعها، سواء كانت مخلفات أثرية أو وثائق مكتوبة.

- والذي يهمننا في هذا المقياس -تحقيق المخطوطات- هو التراث الفكري المتمثل في الآثار المكتوبة سواء كانت أثرية حجرية أو مثلها، أو كانت على شكل كتب أو ملفات أو ما شابهها، وهي التي حفظها لنا التاريخ كاملة أو منقوصة، وهذا يعني كل ما يتعلق بتراث الأمة من المخطوطات التي تبرز حضارة الأمة؛ وتدل على تراثها الماضي.

وبناء على هذا، تنحصر كلمة "التراث" هنا على "المخطوطات"، وما يدور حولها مما كتبه الأقدمون، وما يبحث عنه العلماء والباحثون في عصرنا الحاضر.

- ومما سبق، فإن المهتمين بالتراث العربي الإسلامي، والمنشغلين في ميدان التحقيق يرون أن التراث هو "المخطوطات العربية" من نتاج فكري، وإن كان المعنى يتسع أصلا لكل النتاج الحضاري.

- الأدبي: أما كلمة "الأدبي" لنميز التراث العربي على غيره من أنواع التراث الأخرى فالتراث العلمي له علماء المتخصصون من عرب وغيرهم.

- التحقيق: أما كلمة: "تحقيق" في اللغة من قولهم: حَقَّ الرَّجُلُ القَوْلَ: صدقه، وقال هو الحق، والجاحظ يسمى الرجل المحقق: مُحِقًّا؛ والتحقيق والإحقاق: الإثبات (إثبات المسألة بالدليل).

نقول: أحقت الأمر إحقاقا: إذا أحكمته وصحته، وكلام محقق أي مُحَكَّم ومنظَّم.

يقول الزمخشري في كتابه "أساس البلاغة" "حققت الأمر وأحقته كنت على يقين منه. وحقت الخبر فأنا أحقه: وقفت على حقيقته، والتحقيق في اللغة: هو العلم بالشيء، ومعرفة حقيقته على وجه اليقين".

- أما "التحقيق" في الاصطلاح هو إخراج النص مضبوطا، يكون على الصورة التي قاله (تركه) عليها صاحبه أو أقرب ما يكون إلى ذلك على الأقل هذا هو الاصطلاح العام الذي يقصد به بذل عناية خاصة بالمخطوطات للتثبيت من صحتها.

- يقول عبد السلام هارون في كتابه "تحقيق النصوص ونشرها": "فالكتاب المحقق هو الذي صحّ عنوانه، واسم مؤلفه، ونسبة الكتاب إليه، وكان منته أقرب إلى الصورة التي تركها مؤلفه".

المحاضرة رقم 04:

طرق تحقيق المخطوطات

إن عملية تحقيق المخطوطات عملية شاقة وصعبة، لا يدخلها إلا من تسلح بعدة أمور؛ فعلى دارس المخطوطات أن يكون:

1- متسلحا بثقافة واسعة، خاصة معرفة الخط العربي والوانه وتطوره عبر مراحل المختلفة (فهناك الخط الكوفي، والخط المشريقي، والخط المغربي، والخط الأندلسي... الخ) فمثلا الخط الكوفي يكون خالي من النقاط والتعجيم... الخ

2- أن يكون المحقق قادرا على المقابلة والمقارنة بدقة بين النسخ المختلفة للمخطوط الواحد، للتأكد من صحة النص (المتن) وهذا يساعده على أن يعيد الأصل (الأم) إلى حاله على وجه التقريب).

ومن الأمور المعروفة في ميدان التحقيق، على المحقق أي العالم الذي يريد تحقيق مخطوط ما، أن يجمع كل النسخ المتوفرة للمخطوط الواحد في مختلف أنحاء العالم وفي كل المكتبات،

ثم يقوم بعملية "المقارنة" او "المقابلة" بين هذه النسخ جميعها، ليخرج لنا في النهاية نسخة واحدة صحيحة أو تكاد تكون صحيحة وهذا يعني أن معيار "المقابلة" بين النسخ، كان ومازال شرطاً أساسياً وضرورياً لتصحيح المخطوطات، وللتثبت من قيمتها ونسبتها إلى صاحبها.

3- أن يكون حذراً من بعض العادات المألوفة عند القدماء، كاستخدامهم أقدم النسخ كأصل (كأم) حتى ولو كانت نسخة رديئة، مقارنة مع النسخ الحديثة (حتى ولو كانت جيدة)

وهذا معناه، أن علماء التحقيق القدماء، كانوا يختارون ويفضلون النسخ القديمة، أي التي كتبت في القرن الأول والثاني الهجريين على حساب النسخ الحديثة أي التي كتبت في القرون المتأخرة، الرابع والخامس الهجريين أي أنهم كانوا يعتمدون على معيار الزمن وليس معيار الجودة.

وهذا -في رأينا- بجانب للصواب، فعلى المحقق أن يختار النسخ الجيدة من حيث الخط، وقلة الأخطاء، والناسخ الذي كتبها، هل هو عالم مشهور أو مغمور، ولا يراعي الزمن الذي كتبت فيه سواء كان عصراً قديماً أم حديثاً. ففي القديم هناك نسخ جيدة ومتوسطة وضعيفة، وفي العصر الحديث هناك نسخ جيدة ومتوسطة ورديئة، فمعيار الزمن -في رأينا- لا يصلح للمقارنة بين نسختين والحكم عليهما، لا لشيء إلا أنه هذه قديمة وتلك حديثة.

4- على دارس المخطوطات أن يكون عالماً بفقهاء اللغة، عارفاً بدلالات الألفاظ وربط مدلولاتها بالعصر الذي كتب فيه المخطوط.

وهذا معناه أن لكل عصر ألفاظ ومصطلحات تختلف كثيراً أو قليلاً على ألفاظ ومصطلحات العصر الذي يليه، فمثلاً مخطوط كتب في القرن الأول الهجري يحتوي على كلمات ومدلولات قد تختلف عن كلمات ومدلولات القرن الثاني أو الثالث الهجري، وهذا يتطلب من دارس المخطوط أن يكون خبيراً ومدركاً لتطور الألفاظ ودلالاتها الجديدة حسب كل عصر، وهذا من خلال تمكنه من علم فقه اللغة الذي يساعده على ذلك.

5- أن يكون ملماً إماماً واسعاً بالظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لعصر الذي ألفت فيه المخطوطة (الفهم دلالات الألفاظ).

وهذا يعني لفهم فهما عميقاً محتوى كل مخطوطة، وقبل أن نحلل المتن أي نص من نصوص المخطوطة، علينا أن ندرس التاريخ الأدبي الذي كتبت فيه هذه النصوص، فالظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وحتى الدينية قد تساعدنا على التحليل العميق لمضمون المخطوط.

فمثلا لتحليل وشرح ونقد "البيان والتبيين" للجاحظ، علينا أولا أن ندرس الروف الاجتماعية والسياسية التي كانت محيطة بالجاحظ والواقع الاقتصادي والديني الذي ألمّ به، وماهي القيود أو مستوى الحركات الفكرية التي كانت موجودة في عصره... الخ

6- وقبل البدء في استعمال أية مخطوطة، على المحقق أن يتأكد من: عنوانها، واسم مؤلفها، ومصدرها، وشخصية كاتبها، وتاريخ النسخ اي تاريخ كتابتها (اليوم والشهر والسنة).

فقد يظهر صاحب المخطوطة تحت ظروف معينة أن ينشر كتابه تحت اسم مستعار. (فالجاحظ مثلا كان ينشر بعض كتبه باسم أستاذه/ الخليل الفراهيدي؛ بهدف الشهرة والانتشار السريع بين القراء، لأن الجاحظ في بداية حياته الأدبية لم يكن معروفا، وكتبه لم تكن تلقى الرواج المنتظم من طرف الناس، وهنا يأتي الدور المحقق ليكتشف لنا هذا الزيف في نسبة الكتاب إلى صاحبه الاصلي، ويشرح لنا الأسباب الحقيقية الذي دفعت بالمؤلف الأول إلى اللجوء إلى مثل هذه السلوكات غير العلمية.

7- على المحقق أن يُقَوِّم النص (المتن) ويصحح أخطاءه، ويوضح إشارات التاريخية، ويضبط أعلامه، وأن يلحق بكل كتاب محقق فهرس كاملة ومتنوعة. (فهرس للبلدان، وفهرس للأعلام، وفهرس للأماكن).

المحاضرة رقم 05:

أسباب تحقيق المخطوطات

1) تآكل الورق (ورق بعض المخطوطات) وزوال بعض الكلمات بسبب الكشط ومعنى هذا أن المخطوطات في رحلتها عبر آلاف السنين، قد جار عليها الزمن مرة، والإنسان مرة أخرى، فالمخطوطات العربية قد ظلت لسنوات طويلة حبيسة المكتبات، فتعرضت للتآكل، خاصة وأنها كتبت على روق رخيص وكُدست في هذه المكتبات الخاصة بها فأكلت الحشرات بعض أوراقها، وأصابها الرطوبة وغطاها الغبار، هذا من جهة، ومن جهة ثانية

هناك بعض العلماء، قد سمحوا لأنفسهم –وتحت ظروف معينة- أن يكشفوا ويغيروا بعض الكلمات فيها لأسباب مختلفة، دينية أو سياسية أو عاطفية... وهذا ما دفع بالعلماء المخلصين إلى البحث عنها والإسراع في تحقيقها وإخراجها للناس للاستفادة منها، وتخليصها من ظلم الزمان والإنسان.

(2) إذا كان المخطوط قد نقل عن أصل مفقود (النسخة الأم¹ أي النسخة الأصل). فإن ذلك يؤدي إلى معان جديدة، مما يحتم علينا أن نعيد التحقيق؛ بحيث تصبح النسخة (الثانية) مغايرة لما كان موجودا (في النسخة الأصلية).

وعلى الدارس أن يعرف أن النسخ الأصلية للمخطوطات العربية نادرة لأسباب أهمها:

(أ) أن العلماء القدماء كانوا في الغالب لا يكتبون مؤلفاتهم، بل يعتمدون على الإملاء، أي إملاء كتبهم على تلامذتهم في حلقات الدرس.

(ب) أن معظم النسخ الأصلية للمخطوطات العربية، قد هربت إلى الخارج (خارج الوطن العربي) لأسباب كثيرة، أهمها الاستعمار.

- وبناء على هذا، وفي ظل عدم توفر النسخ الأصلية² للمخطوطات العربية، إلا في حالات نادرة، كان لزاما على علماء التحقيق أن يبحثوا عن النسخ الثانوية في مختلف مكتبات العالم، والعمل على جمعها بغية التحقق من صحتها بعد المقارنة والمقابلة بينهما جميعا، واستخراج نسخة واحدة صحيحة أو تكاد وتكون صحيحة. (قريبة من الصح).

ثم نقوم بدراستها وتحليلها ونقدها ونشرها بين الناس حتى نحافظ على هذا التراث الإسلامي لبناء حضارة إنسانية معاصرة.

(3) قد يحدث تغيير في المصادر القديمة (المخطوطات) عن قصد أو عن غير قصد، فينسب الناسخ لصاحب المخطوطة أشياء هو برئ منها لأسباب مذهبية أو سياسية أو دينية أو أغراض شخصية.

- وهذا معناه أن كل مخطوطة لها ثلاثة مستويات وهي كالآتي:

1- المؤلف الأول 2- الناسخ 3- المحقق

1 - النسخة الأم : هي النسخة التي كتبها المؤلف نفسه بخط يده، فمثلا: إذا وجنا نسخة من "البيان والتبيين" كتبها "الجاحظ" نفسه وبخط يده، فنقول على أنها نسخة أم، (وغيرها من النسخ تعتبر نسخا ثانوية).

2- في حالة توفر ووجود النسخة الأصلية للمخطوط، يكتب المحقق بهذا الفصل، ويقوم فقط بتخليص 18 من بعض الأخطاء العالقة به، ثم ينشره كما هو، لأنها نسخة صحيحة، كتبها المؤلف نفسه بخط يده؛ فلا تحتاج إلى التحقيق. بل تحتاج فقط إلى دراستها وتحليلها ونقدها والتعليم عليها من طرف الدارسين الذين جاءوا بعد عصر المؤلف الأول.

- المستوى الأول: وهو صاحب المخطوطة، أي المؤلف الأول أو الكاتب الذي أبدعها لأول مرة، وهي نسخة تكون -في الغالب- قليلة الأخطاء.

- المستوى الثاني، وهو الناسخ أو النساخ الذين يأتون في مرحلة ثانية، أي بعد موت صاحب المخطوطة الأول، فينسخون نسخا عديدة ومختلفة حسب مستوى الناسخ وثقافته وذكائه والبيئة التي يعيش فيها هذا الناسخ، قد يسمح لنفسه، بالتغيير زيادة ونقصا، في هذه المخطوطات لأسباب عديدة، سياسية أو دينية أو مذهبية... الخ

فمثلا: ناسخ شيعي وهو ينقل مخطوطا لأهل السنة، قد لا تعجبه بعض الأفكار، وقد لا تتوافق مع آرائه الدينية جملة من المبادئ والمسائل الدينية، فيحاول إخفاءها أو تغييرها أ... والعكس صحيح ناسخ سني وهو يتعامل مع مخطوط شيعي، قد ينسب لصاحب المخطوطة أشياء هو بريء منها وهكذا.

- مثال آخر على هذا التغيير الذي أصاب المصادر القديمة (المخطوطات) عمل بعض علماء الاستشراق، وبدافع التعصب الديني وحقدهم على الإسلام والمسلمين، قد يسيئون لهذه المخطوطات بالزيادة والنقصان حسب أغراضهم الشخصية.

المستوى الثالث: وهو دور المحقق، حيث يقوم بجمع أكبر عدد ممكن من هذه النسخ المختلفة للمخطوط الواحد، ويقوم بالمقابلة بين جمع هذه النسخ، لاستخراج نسخة واحدة صحيحة أو تكاد تكون صحيحة لأن جوهر التحقيق، كما يقول عبد السلام هارون "الكتاب المحقق هو الذي صحّ عنوانه... وكان منته أقرب إلى الصورة التي تركها مؤلفه".

(4) صعوبة قراءة بعض المخطوطات، لاختلاف خبرها، نتيجة عوامل طبيعية متعددة؛ كالغبار والرطوبة والحشرات.

- وهذا يعني أن المقبل على دراسة هذه المصادر القديمة (المخطوطات) قد يجد بعض العراقيل والصعوبات أثناء قراءتها، وعلى رأس هذه الصعوبات، الأقلام التي كتبت بها هذه المخطوطات، والشيء الثابت عند القدماء أنها كتبت بالحبر وهي مادة سائلة تتغير من الأيام والأعوام، ويتغير لونها خاصة وأن هذه المصادر ظلت ومازالت لسنين طويلة مكدسة في المكتبات الخاصة بهذه المخطوطات، وهي معرضة للظلام والرطوبة والغبار بالإضافة إلى بعض الحشرات التي تتغذى على أوراقها.

- وأيضا أن المخطوطات العربية والإسلامية، كتبت بخطوط مختلفة ومتنوعة مثل الخط الكوفي والخط الأندلسي والمشرقي والمغربي... الخ. وبناء على ذلك كان لزاما على قارئ المخطوطات أن يتعلم أولا أنواع هذه الخطوط حتى يتسنى له قراءتها ومن ثم تحقيقها ودراستها ونشرها بين القراء.

5) التهريب الذي حصل لهذه المخطوطات، مما دفع بالعلماء –علماء التحقيق- البحث عنها، ومحاولة بعثها وإحيائها من جديد، بعد أن ران عليها الزمن وأكلها الغبار.

- إذن وكما قلنا سابقا، إن المخطوطات تعرضت لظلم الزمن مرة، ولظلم الإنسان مرة أخرى، وفي مقدمة هذا الظلم الإنساني، الاستعمار أو الاستعمار الذي تعرض له الوطن العربي طيلة آلاف السنين وكان أخطرها –في رأينا- على الإطلاق: "***" الذي عبث بمقومات الأمة الإسلامية، فبعد حرق معظم المخطوطات الإسلامية في مختلف العلوم وبعد رمي أهم المصادر وأمهات الكتب في نهري دجلة والفرات حتى أصبح لون الماء بلون الحبر الذي كتبت هذه المخطوطات، الأسود والأحمر والأخضر... الخ.

بعد هذا كله، أخذ معه ما تبقى من هذا التراث العربي والإسلامي، إلى خارج الوطن العربي، وهذا الكلام ينسحب على بقية الشعوب المستعمرة للوطن العربي، ولعل آخرها الاستعمار الفرنسي، وما خلفه من مآسي على الشعب الجزائري، بقيت آثاره شاهدة حتى اليوم.

وخير شاهد على ذلك: أرشيف الثورة الجزائرية أو تاريخ الثورة الجزائرية الذي مازال إلى اليوم، حبيس أدراج المكتبات في فرنسا؟!!

- وبناء على ما سبق، فلا يجب أن نجد أمهات الكتب الأدبية واللغوية والفقهية والفلسفية... موجودة في مكتبات أوروبا (مثل ألمانيا وقينا وباريس وتركيا...) ولا توجد في الوطن العربي، وهذا يعني ببساطة أن الحضارة الأوروبية –الغربية- قامت أساسا على انقراض هذا التراث الإسلامي، وخير دليل على ذلك ما قام به المستشرقون من جهود في ترجمة هذا التراث، ونقله إلى ديارهم، بطرق مشروعة وغير مشروعة ومن ثم الاستفادة منه، خاصة مع بداية القرن الخامس غير الميلادي. وقد أشرنا إلى شيء من ذلك عندما تحدثنا عن الاستشراق والمخطوطات؛ في محاضرة سابقة.

المحاضرة رقم 06:

منهج التحقيق عند العلماء القدامى

- اهتم القدماء من علماء العربية بالتحقيق والتدقيق، وعرفوا بالتحصيل والضبط، والتثبت في تعاملهم مع النصوص القديمة؛ حتى توفر لهم منهج قويم قائم على أسس متينة، احتداه المحققون المعاصرون فيما بعد.
 - ولعل عناية المتقدمين بالقرآن الكريم وقراءاته، والحديث الشريف وأسانيده ورواياته، كانت البداية الصحيحة للانطلاق نحو العلوم المختلفة من شعر ونثر.
 - فقد أخذ العلماء المسلمون أنفسهم بهذا المنهج¹ العلمي الصارم، في سبيل الوصول إلى الحقيقة، من خلال اهتمامهم الصادق للحديث الشريف (علوم الحديث).
 - وكانت أعظم النسخ -نسخ المخطوطات- قيمة عند علماء التحقيق:
- (1) أولاً: تلك التي كتبها المؤلف بنفسه وبخط يده وعلينا توقيعها.

¹ - وهذا المنهج هو: منهج "الجُرْحُ والتعديل" الذي اعتمده علماء الحديث النبوي الشريف، في التمييز بين الأحاديث الصحيحة والأحاديث الضعيفة.

- والجرح: ومعناه تجريح راوي الحديث من حيث الصدق والكذب والعلم والتدين ورجاحة العقل والاستقامة... الخ وهذا يعني نقد السند أي سند الحديث أي رواية الحديث (عَنْ عَنْ...)

ثم نقد (المتن) أي النص أي الحديث نفسه من حيث ألفاظه وأسلوبه وتراكيبه. والنتيجة: أن الحديث الصحيح هو ما كان سنده صحيح، و*** صحيح أما إذا اختل شرط من هذه الشروط فهو حديث ضعيف.

- ثم طبق هذا "المنهج" عند نقاد الشعر ورواة الشعر فيما بعد؛ ثم استعمله العلماء الذين قاموا بتحقيق المخطوطات في مختلف العلوم.

(2) ثانيا: ثم تأتي في المرتبة الثانية، المخطوطة التي نسخها أحد طلابه وأجازها كما سمعها من شيخه إملاء في حلقة الدرس؛ أو تلك النسخة التي يكون المؤلف نفسه قد صححها لتلميذه التي نسخها والتي أجازها (الإجازة) أي أن المؤلف يقول لتلميذه إنني أجزتك بمعنى أنها صحيحة؛ وأنه تلميذ نال ثقة الشيخ في كل ما يكتب عنه ونسخ.

(3) ثالثا نسخة كتبها عالم معروف بعلمه ومشهور بحبه للمخطوطات، أو نسخة في حوزة، وملكية عالم متخصص، أو نسخة تداول عليها أكثر من عالم، وتناقلوها لقيمتها العلمية.

- ومن أسباب وقوع اختلاف بين العلماء في قراءة المخطوطات:

1- نتيجة تعديلات وتغييرات جوهرية أجراها المؤلف نفسه في حياته، مثل: كتاب "الموطأ" للإمام مالك، إذ أملاه على تلامذته أكثر من أربعين (40) عاما، وفي كل عام كان يضيف أشياء ومسائل جديد، وربما كان أيضا يحذف مسائل تجاوزها الزمن أو قام حولها خلاف بين العلماء... وهكذا، وبعد موت الإمام مالك أصبح "للموطأ" نسخ كثيرة تتفاوت فيما بينها، وروايات متعددة، وأيضا كتاب "الإبل" للأصمعي، وصلنا بروايات مختلفة.

2- أيضا أن هناك نوعا من المؤلفين، لا يجب التغيير في مؤلفاته حتى ولو كانت بها بعض الأخطاء، فكتب التاريخ الأدبي تروى لنا مثلا أن الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" يعلم ببعض السقطات والعلل الموجودة في كتابه وعندما ينبهه إليها أصدقائه العلماء، يرفض الجاحظ التصحيح، بحجة أن الكتاب انتشر بين القراء وأنه لا يريد البلبله والتشوش عليهم، وكان الجاحظ يؤمن بأن الإبداع الحقيقي هو الذي قيل لأول مرة، سواء كان شعرا أم نثرا.

3- الإصلاحات التي كان يقوم بها العلماء الذين يقرءون هذه المخطوطات، وعبر آلاف السنين قد مرت بمراحل مختلفة، تعاقب عليها كثير من القراء والنساخ العلماء الذين نقلوها لنا، وأضافوا لها أشياء عن قصد وعن غير قصد، مرة لحسن نية، ومرات لأسباب أخرى دينية أو مذهبية أو سياسية أو أسباب شخصية

* من مشكلات التحقيق: التصحيف والتحريف في المخطوطات.

التصحيف والتحريف في المخطوطات

فكلاهما فيه الخط، وهو مأخوذ من الصحف، والصلة بين اللفظين واحد، يدور حول البحث في الخطأ، ومصدر هذا الخطأ الذي يحدث في نطق أو كتابة الكلمة العربية، نتيجة الخطأ الإملائي في قراءة الحروف المكتوبة (نقط الحروف أو شكلها).

والتصحيف والتحريف مظهران للخطأ في قراءة الخط المكتوب أو اللفظ المسموع، فهناك تحريف قراءة وتحريف سماع.

- أصل لفظ "التصحيف" أخذ العلم من الصحف (≠ العلماء) وهناك من العلماء من أراد التفريق بين اللفظين.

- التصحيف: تغيير الحروف بتغيير النقط (مصر ≠ مضر)

- التحريف: تغيير في الشكل (الرجل ≠ الدجل)

- والتصحيف لا يقع إلا في الحروف المتشابهة في الرسم الإملائي، كالباء والتاء والثاء والنون والياء... الخ.

- أما التحريف: استبدال حرف بحرف آخر يشبهه في رسمه مقارب له (الرجل ≠ الدجل) و (الرجل ≠ الأجل)

وسبب هذا التصحيف والتحريف في المخطوطات، هو الخط العربي وقابليته لهذه الظاهرة، ظاهرة التصحيف والتحريف.

- مثلا في كتاب "الأغاني" للأصفهاني، نجد محقق الكتاب يقول:

حدثني "حمزة بن ربيعة" ومحقق آخر يقول حدثني "ضمرة بن ربيعة".

- من أسباب وقوع التصحيف والتحريف في المخطوطات:

1) الرسم العربي (2) النساخ (3) وهم العلماء.

يقول الجاحظ في كتابه الحيوان 79/1 عن تحريف النساخ: " لربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفا أو كلمة ساقطة، فيكون إنشاء عشر ورقات من حرّ اللفظ وشريف المعاني، أسير عليه من إتمام ذلك النقص، حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام... ثم يصير الكتاب بعد ذلك نسخة لإنسان آخر، فيسير فيه الوراق الثاني سيرة الوراق الأول، ولا يزال الكتاب تتناوله الأيدي الجانبية والأغراض المفسدة حتى يصير غلطا صرفا وكذبا ***".

- والدافع للتحريف والتصحيف:

1- غلط الدارس في سماع الرواية (تصحيف سماع)

2- غلط القارئ في رسم الحروف (تصحيف قراءة)

3- تحريف النص نصرة لراي معين (الشيعة ≠ السنة) المستشرقون (عاطفة دينية أو سياسية أو عاطفة خاصة).

المحاضرة رقم 07:

يقول كراتشكوفيسكي (الاشتغال بدراسة المخطوطات يحمل في ثناياه السرور والحزن معا، شأنه في ذلك شأن اي شيء في الحياة، إلا أن المخطوطات غيورة، فهي تطمع دائما في أن تستحوذ على كل اهتمام الإنسان، وعندئذ فقط تعرض أسرارها وتكشف عن روحها، وروح أولئك الناس التي كانت مرتبطة بهم، أما المتطلع العابر فإنها تظل خرساء لا تنبئ عن شيء، وهي كأنها (الست المستخبية) تقفل أوراقها عندما تلمس بدون حذر، وهي لا تفضي بشيء إلى من يتطلع إليها بنظرة موحشة ملولة، وهو بالتالي لا يرى أي شيء فيها اللهم إلا تلك السطور المتشابهة غير الواضحة، والتي تكون عادة على ورق رديء رخيص، يحتويها جلد بال ممزق، ولكن المتخصص في دراسة المخطوطات تظهر له أفراح الأعياد وأيضا ساعة يتلأأ أمامه أي اكتشاف يلمع في البداية كشرارة صغيرة، بل يظل المتخصص خائفا من أن يكتشف أن هذه الشرارة ليست خداع بصر).

المحاضرة رقم 08:

ماهية التحقيق

يقول عبد السلام هارون: "فالكتاب المحقق هو الذي صحّ عنوانه، واسم مؤلفه ونسبة الكتاب إليه، وكان متنه أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلفه"

- وهذا معناه -إذا صحّ فحلّمنا لهذا القول- أن جهود عالم التحقيق، تكون متصلة حول أربعة محاور أو نقاط أساسية؛ في كل مخطوط يقوم بتحقيقه:

(1) تحقيق عنوان الكتاب -المخطوط-

(2) تحقيق اسم مؤلف الكتاب.

(3) تحقيق نسبة الكتاب إلى صاحبه (الحقيق)

(4) تحقيق متن الكتاب (حتى يظهر قدر الإمكان مقاربا لنص مؤلفه)

أولاً: في حالة وجود النسخة الأصل، نسخة المؤلف أو نسخة الإملاء (النسخة التي أملاها الشيخ على تلميذه ثم سمعها منه وصححها هو بنفسه وأجازها).

- في هذه الحالة، يكفي المحقق بحسن قراءة النص، لأن الخط القديم يوجد به إهمال النقط والإعجام.

ثانياً: المخطوط القديم به إشارات كتابية لا يستطيع فهمها وفهم رموزها إلا بطول الممارسة والإلف المعيشة (راجع في ذلك نص المستشرق الروسي كراتشكوفسكي والاشتغال بدراسة المخطوطات).

ثالثاً: وهذا يتطلب محققاً عالماً بالفن الذي وضع فيه الكتاب (المخطوط) وعارفاً متمرساً بخطوط القدماء، والظروف القاسية التي مرت بها هذه المخطوطات (الخط، الحبر، الورق... الخ).

(1) التثبت من أن المؤلف له كتاب بهذا العنوان:

- على دارس المخطوطة (المحقق) أن يعود إلى كتب التراجم وكتب الطبقات

- فهارس الكتب العربية:

* الفهرست لابن النديم (ق 4 هـ)

* كشف الظنون لحاج خليفة (ق 10 هـ)

- الفهارس الحديثة:

* فهرس كارل بروكلمان (تاريخ الأدب العربي)

* معجم المطبوعات لسركيس/ وفؤاد سيزكين.

* فهارس دور الكتب

* خزائن المخطوطات

* سؤال أهل العلم (المتخصصين في التحقيق)

(2) تحقيق نسبة المخطوط إلى مؤلفه (صاحبه)

- وهذا يحتاج إلى دراسة مفصلة للمؤلف (صاحب المخطوط)

- معايشة المخطوط (عادة تضيع الأوراق الأولى والأخيرة من المخطوط، بسبب تكديسها في المكتبات/ وأيضا بعض تجار الكتب يعمدون إلى تقليد بداياتها ونهاياتها حتى تعطي شكلا أكثر قدما/ وأيضا نسبتها إلى مؤلف مشهور.

- الجاحظ (مثلا) كان يؤلف الكتاب وينسبه إلى غيره حتى تشتهر فتننتشر (ابن المقفع والخليل بن أحمد الفراهيدي).

- وهذا يتطلب من المحقق أن تكون له ثقافة واسعة بالمؤلف، صاحب المخطوط، وبمعجمه اللغوي، وبالعصر الذي ألف فيه الكتاب.

أولا: أن يحيط المحقق بكل شيء: فقه اللغة، النحو والصرف، فلسفة، تاريخ وجغرافيا، علم الأجناس، علوم طبيعية، ودلالات الألفاظ...

ثانيا: القدرة على قراءة المخطوط: الخط الكوفي، **ال***** الفارسي، المغربي، الأندلسي، خط الرفعة... الخ

ثالثا: ضرورة التأكد من صحة المخطوطة في ذاتها، وصحة نسبتها إلى صاحبها (نقد المصدر).

وهذا يتطلب:

- الرجوع إلى الكتب التي ألفها المؤلف نفسه صاحب المخطوط

- وينظر في كتب التراجم (الفهرسة، كشف الظنون... الخ)

- كتب المؤلف نفسه

- مقدمة المخطوط نفسه

- دراسة سند (أسانيد) رواية الكتاب (المخطوط)

- دراسة تراجم الرواة (لمعرفة العصر)

- دراسة أسماء الرجال (العلماء) المذكورين فيه

- على المحقق التأكد من تاريخ النسخة المخطوطة (في أوله أو في آخره أو لم تذكر أصلاً).

- دراسة الورق و*** والخط.

مثلاً: نسخة مخطوطة في القرن 1 هـ مكتوبة بخط فارسي أو نسخي عادي (هذه نسخة منقولة)

مثلاً: مخطوط في القرن 4 هـ أو 5 هـ مكتوب بخط كوفي قديم، يخلو من النقاط والإعجام (نسخة منقولة أيضاً).

(3) المتن نفسه (المخطوط)

- وهذا يحتاج إلى فحص متن المخطوط (نقد داخلي) من حيث:

* شخصية المؤلف وأسلوبه ومعجم ألفاظه وطريقة استعماله المجاز وأدوات الجر مثلاً.

* العصر الذي يعيش فيه والبيئة.

* الأعلام والمواضع أي العلماء والأماكن (المذكورة في المخطوطة)

* دراسة اللغة التي كتبت بها هذه المخطوطة (هناك مثلاً أنواع من الخصائص اللغوية والعبارات والمجازات الإسلامية تختلف والعبادات والمجازات والعصر الجاهلي).

* دراسة المعجم اللغوي للأديب (لكل أديب معجمه الخاص).